بين تاليران ونابليون

فى الحقبة الممتدة من أواخر القرن الثامن عشر إلى أوائل القرن التاسع عشر تعرضت فرنسا لتقلبات جمة ، وتداولت الحكم فيها حكومات مختلفة الشيات ، متباينة المقاصد ، منها الملوكية العتيدة على الطراز القديم ، ومنها الحكومات الثورية الوشيكة الأجل السريعة الدثور ، ثم حكومة الديركتوار ، وحكومة القنصلية ، والامبراطورية النابليونية ، ثم عودة البوربون وحكومة لويس فيليب ، وكانت هذه التغيرات المتتابعة لا تخلو فى أغلب الأوقات من العنف والشدة . وفى خلال هذه الحقبة الحافلة بالتقلبات ، والمليئة بالأحداث الجسيمة ، والخطوب الجليلة ، كان يظهر على الدوام رجل بارز الشخصية ، ملحوظ المكانة ، عظيم الخطر ، وهذا الرجل هو السياسى الفرنسى الشهير تاليران ، والرجل الذى استطاع أن يلعب مثل هذا الدور ، ويرفع رأسه فى أثناء هذه الموجات المتتابعة لا بد أنه كان رجلا قوى الشخصية ، موفور الحظ من الدهاء وسعة الحيلة ، والقدرة الفائقة على التقلب حسب الظروف والملابسات ، مع الذكاء الخارق والكفاية التامة التى جعلت الحكومات المختلفة الألوان تستعين به وتعتد برأيه .

والواقع أن هذا الرجل كان أعجوبة من أعاجيب الدهر، ولغزا من ألغاز التاريخ والسياسة، فلا تزال تختلف الآراء وتتعارض الأحكام والتقديرات فى تفسير أعمال هذا « الأبى الهول » . فهو مثلا فى رأى المؤرخ الانجليزى المستر دف كوبر « وطنى صادق الوطنية، وسياسى راجح العقل » ، والبحاثة الألمانى الهر بلى (Blei) لا ينكر عليه كفايته السياسية، ولا يجحد حكمته، ولكنه يرى « أنه لم يمزج نفسه بوطنه وإنما مزج وطنه بنفسه » والكونت دى سنت أولير يرى فيه « نهازاً للفرص بارعا، توجهه فى ذلك مصلحته الخاصة » ، أما السير جون ماريوت فيرى أن شهرته تزداد سمواً كلما أمعنا النظر وأطلنا البحث فى حياته العامة، أما حياته الخاصة فإنها تتطلب منا التسامح والغفران، ويسلم دف كوبر بأن الرجل كان يخون سادته، وينصب لهم الحبائل والأشراك، ولكنه يعتقد أنه كان فى أعماق نفسه مخلصا لغرض أسمى من أغراض هؤلاء السادة، وأبقى من النظم المتقلبة، والحكومات الزائلة، وهذا الغرض الأسمى هو مصلحة فرنسا ذاتها، بل يذهب إلى أنه كان يرمى إلى غاية أكبر وأجل من مصلحة فرنسا وهى المثل الأعلى لتحقيق السلام ونشر أعلامه فى ربوع أوربا، وقد بنى دف كوبر دراسته القيمة لحياة تاليران على أساس هذا التصور، وحلل أعماله ومواقفه فى ضوء هذه النظرية .

وقد ولد تاليران سنة ١٧٥٤ فى أسرة من أعرق الأسر الفرنسية، وحدثت له فى طفولته حادثة أصيب من جرائها بالعرج، ونحى عن ميراث

الأسرة وأوثر عليه أخوه الأصغر ، واضطر إلى أن ينشد المستقبل فى الكنيسة ، ولم يكن بطبيعته صالحا لذلك لأنه كان حر الفكر ، فولتيرى النزعة ، مخلوع العنان فى طلب المتعة والتحلل من قيود العرف وأوضاع المجتمع ، ولكن القرن الثامن عشر كان يألف مثل هذا التناقض ولا يرى فيه كبير بأس . ونبه شأنه بين رجال الكنيسة ، ثم خاض غمرات السياسة وخالط الثائرين ، وظهرت مواهبه فى الحياة العامة ، وكان معروفا فى المجتمعات الخاصة بسرعة الخاطر ، وحديثه المستعذب ، وسمته الأرستقراطى ، وتدلهه فى هوى خليلاته الكثيرات ، وعشيقاته الفاتنات ، وكان مع ماعرف عنه من تقلب يحفظ عهدهن ، ويرعى ذمامهن ، حتى بعد أن يذهب جمالهن وتودعهن بهجته ورواؤه .

ولما بدأ عهد الإرهاب فى فرنسا اضطر إلى الهجرة لانحداره من أسرة أرستقراطية ، وذلك برغم صداقته لدانتون وعلاقته بزعماء الثورة . وزار انجلترا والولايات المتحدة ، ثم عاد إلى فرنسا سنة ١٧٩٧ حيث عين وزيراً للخارجية فى حكومة الديركتوار ، وسرعان ما لحظت عينه القائد الشاب نابليون بونابرت ، وقد أدرك بفطنته النافذة و بداهته الموفقة أن هذا الشاب هو رجل الساعة ، و بطل الموقف ، فعاون على إحداث الانقلاب الذى مكن نابليون من القنصلية ، وحفظ نابليون له هذه اليد فاستبقاه وزيراً للخارجية فى عهد القنصلية وفى عهد الإمبراطورية .

وكان هو الوحيد بين رجال نابليون الذى يستطيع أن يقف لهذا المارد

الكورسيكى ، ويطاوله ويقتحم حومته لتجاربه الناضجة ، وبصره بأعقاب الأمور ، وعراقة الأسرة التى ينتمى إليها ، ومكانته العالية فى نفوس أقيال أوربا العباهلة ، وأمرائها الأرواع ، وساستها الأفذاذ ، وسائر رجالها الأعلام . وكان نابليون يشعر بحاجته إليه لمعرفته الواسعة بالتقاليد المرعية ، ومستلزمات السياسة الدولية ، مع الكياسة فى تصريف الأمور ، واللباقة فى حل المشكلات ، قال عنه نابليون « فيه الكثير من الصفات اللازمة لمباشرة المفاوضات ، فله تجربة رجل الدنيا ، ودراية بالبلاطات الأوربية ، وعنده الذكاء والألمعية ، وشىء آخر أكثر منهما ، وهو ذلك المحيا الذى لا ينحسر قناعه ولا تنم على شىء أساريره ، ثم الاسم العظيم الذى يحمله » ونلمح من ذلك أن إعجاب نابليون به كان من قبيل إعجاب النقيض بنقيضه ، فقد كان نابليون محتدم المزاج نارى الطبع ، ينقصه هدوء تاليران الذى كان لا يروّع سربه ، ولا تهيل الحوادث من جانبه ، واقتداره على ضبط نفسه .

وكان نابليون فى طالعة أمره يركن إليه ، ويثق به ، وهو يمحضه النصح ، ويصارحه الرأى ، دون أن يتخشع له أو أن يتضاءل أمامه ، وقد حرض نابليون على ملاينة البريطانيين ونصح له بأن يصالحهم ، وأن يعمل على تصفية الجو بينه وبينهم ، وذلك لتوطيد السلام واستتباب الأمن والطمأنينة ، ولكن نابليون أثمله النصر ، وطار بلبه حب الحرب ، وغره إجلاب القواد حوله ، وتفانيهم فى طاعته ، فركب رأسه ، واندفع

فى الطريق الذى ازدلف به إلى الهاوية السحيقة . وكان تاليران يرى أن سلامة أوربا ومصلحة فرنسا أجل شأناً من الولاء لنابليون ، ولذا بدأ منذ سنة ١٨٠٧ يأتمر بسيده ، ويعمل على تقويض ملكه ، وهدم دولته ، وأصبح عيناً للقيصر الإسكندر الأول عاهل الروسيا ، يوافيه بأخبار سيده ، ويفضى إليه بأسراره واتجاهاته ، وأحس نابليون خيانته ، وعرف دغل سريرته فتركه فى(١) منصبه الجديد ولم يبادر إلى عزله و إقالته . ولكن لماذا لم يعزله نابليون ويبعده عنه ليأمن دسائسه ويتقى خطره ؟ ومن الحكم المأثورة عن مكيافلى قوله : « إن الأمير إما أن يسحق ويهلك ، وإما أن يحتضن ويقرب ، أما أنصاف الحلول فإنها ضارة به » ولم يدرك نابليون ذلك على ما يظهر إلا فى أيامه الأخيرة فى فونتينبلو حيث قال : « كان يلزم إعدام هذا الخائن — تاليران — شنقاً أو رمياً بالرصاص » ، ولعل نابليون كان يرى الاحتفاظ به وتقريبه لفرط حاجته إليه مع حكمه عليه بأنه « دساس وأنه لا أخلاق له وأنه موفور الحظ من الذكاء ، وأنه خير وزرائه ومستشاريه » .

وكان نابليون شديد الاعتداد بنفسه ، والثقة بقوته ، فهو يعتقد أنه بمأمن من دسائس تاليران ، وأنه يستطيع سحقه حينما يشاء ، وقد أخطأ نابليون فهم طبيعة هذا الرجل ، فقد حاول سحقه و إخضاعه لمشيئته فى ذلك المشهد التاريخى المأثور ، والحادث الذى لم يستطع تاليران أن ينساه أو يغتفره وهو حادث يوم ٢٨ يناير سنة ١٨٠٩ ، وذلك

(١) بعد عودة نابليون من تلست أراح تاليران من أعباء وزارة الخارجية ورقاه إلى منصب " نائب المنتخب الأعظم " .

obeikandi.com

أن نابليون كان فى أسبانيا يحاول الإجهاز عليها و إتمام غزوته ، فنمى إليه أن تاليران وفوشيه وزير الداخلية قد تهادنا واتفقا ونسيا — إلى أمد ما — ما كان بينهما من تنافس وخلاف ، وأن فوشيه شوهد فى منزل تاليران ، وأنه تلقاه بالترحاب وأقبل عليه وخلا به طويلا ، وتسايرا على مرأى من الحاضرين مما أثار الدهشة وأطلق الأقاويل والإشاعات ، فهمّ ذلك الخبر نابليون وعناه وأقض مضجعه .

تاليران يضع يده فى يد فوشيه ويتزاوران ويتشاوران ، خطب جليل وواقعة سوداء ! فغادر نابليون إسبانيا مسرعا وعاد إلى باريز ووصل قصر « التولرى » يوم ٢٣ يناير ، وبعد ذلك بأيام قلائل عقد اجتماعا دعا إليه أعيان الدولة والوزراء وبينهم تاليران وفوشيه ، وبدأ نابليون حديثه بملاحظات عامة أبان فيها أنه ليس من حق رجال دولته أن يروا رأيا غير رأيه ، وأن الشك فى آرائه نوع من الخيانة ، وأن مخالفته هى الجريمة بعينها ، ثم اندرأ على تاليران بالشتائم الجارحة ، والسباب المقذع ، واستمر مدة تقارب نصف الساعة وهو لا يترك نقيصة من النقائص إلا قذفه بها ، ولا جريمة من الجرائم إلا رماه بارتكابها ، فهو لص وجبان وخائن ، واتهمه بأنه لم يخلص فى أداء واجب واحد من واجباته ، وأنه خدع كل من عمل معهم ، وأنه لا يؤمن بالله ، وأنه لا يحجم عن بيع أبيه ، وألقى عليه تبعة قتل دوق دانجيان وحرب الجزيرة ، وساءه ما يبديه من عدم الاكتراث وأغاظه ، فعيّره بعرجه وخيانة زوجته ، ثم هز قبضة يده كأنه

كان يهم بضربه وقال له « إن فى وسعى أن أحطمك كما أحطم الزجاجة ، وإنى على مثل ذلك لقادر ، ولكنى أحتقرك الاحتقار كله فلا أجشم نفسى هذا التعب » كل ذلك وتاليران متكئ على منضدة صغيرة إلى جانب الموقد ساكن الطير ، ثابت الجأش ، كأنما كان المقصود بهذا السيل المنهمر من الشتائم غيره من الناس . وهال ذلك الحاضرين فقد سلك الإمبراطور سلوكا غير لائق وتناسى وقاره ، وانتثر المجلس فى عقب ذلك ، والتعليق الوحيد الذى قاله تاليران لأحد الذين كانوا حاضرين وهو يظلع فى خروجه من رواق القصر « مما يؤسف له أن يكون مثل هذا الرجل العظيم هكذا سيىء النشأة » وفى المساء روى الخبر لصديقته مدام دى لافال ، فأومضت عينها ببريق الغضب وهى تصغى إليه ثم قالت له فى النهاية وهى مغيظة محنقة : لقد أصغيت لذلك كله ولم تحاول أن تعلوه بكرسى أو أن تقذفه بشىء آخر ! فأجابها تاليران غير عابىء : « لقد فكرت فى ذلك ولكنى كنت أكسل من أن أحاوله » وظل تاليران بعد ذلك على سابق اتصاله بنابليون ولم ير ما يدعو إلى مقاطعته ومباعدته !

وفى مؤتمر فينا تجلت مواهبه واستطاع أن يرفع رأس فرنسا المغلوبة على أمرها ، وأرغم بدهائه وحسن مدخله الوزير الانجليزى كاسلرى على أن يضمه إلى صفه فى جانب النمسا ليكونوا جميعهم جبهة فى وجه مطامع روسيا وبروسيا .

ولم ينس تاليران إهانة نابليون له ، ولم يغتفرها له ، ومن المحتمل أن

obeikandi.com

يكون هذا الرجل قد عمل على إسقاط نابليون انتقاما لشخصه ، وشفاء لحزازته ، لا لمصلحة فرنسا وأوربا كما ادعى بعد ذلك . وقد ظل تاليران يمقت نابليون أشد المقت ، وقد روى عنه الحديث الآتى جان جبرييل إينار فى مذكراته عن مؤتمر فينا .

قال تاليران: «إنى لأذكر باشمئزاز مؤتمر إرفرت حيث اجتمعت العواهل تنتظر فى ذلة وضراعة تقديم فروض الطاعة للرجل الذى لم يترك فرصة تمر دون أن يتعمدهم بالإهانة .وقد كان بونابرت شديد الشعور بقوته المنيفة، ولكنه لم يكن عظيم النفس ، فكلما أفرط إنسان فى الخضوع له تخطى إليه بالإساءة ، وغالى فى امتهانه ، وفضلا عن ذلك كان الجبن من صفاته الأخلاقية الواضحة ، وكان جباناً فى كل مظاهر طبيعته .

فأظهرنا دهشتنا البالغة عند تكراره ذلك القول فأصر تاليران على رأيه وقال :

« نعم ياسادة لقد أظهر جبناً فى كل موقف »

فقال له المسيو دفرنوا D'Ivernois : «مهما يكن من الأمر فإن شهرته على نقيض ذلك » فقال تاليران : « لأن أحداً لم يعرفه معرفتى به ، وفى وسعى أن أقدم لك ما تشاء من البيانات ، فمن أمثلة ذلك أنه كتب إلى خطابا فى المساء قبل موقعة (أوسترلتز) ينم على الخور وتمكن الضعف منه ، وفى الصباح بعد انتهاء المعركة كتب إلىّ خطاباً غامضاً ملتبساً ، وفى أثناء القتال فى جروس أسبرن اختبأ خلف سرحة وطاش صوابه ، وعندما خانه الحظ

فقد همته ومضاءه . وهذا الرجل الذى كانت ثقته بنفسه فى الرخاء لا تحد ، كان عندما يعبس له الحظ يستجدى كل إنسان النصيحة ، ولا يترفع عن مشاورة صغار الضباط وسواس الخيل »

قال تاليران ذلك بمرارة وغيظ ، فألقيت إليه بهذه الملاحظة : « إذا صح أن نابليون كان جباناً فكيف اتفق أنه كان ولوعا بركوب الأخطار ، والتعرض لعظيات الأمور ، وكان على الدوام مشغول البال باثارة حروب جديدة ؟ »

فتحاشى تاليران الإجابة عن هذا السؤال وأخذ فى ناحية أخرى فقال : « كان جبنه يظهر فى كل شىء ، فعلى المائدة كان لا يشرب الماء من الكأس القريبة منه ، ويعمد إلى الكأس الموضوعة فى مؤخرة المائدة »

فقال المسيو بكتيه : « ولكنه فى باريز كان يسير منفرداً أو مصحوباً بحاشية قليلة »

فقال تاليران : « لا تصدقوا ذلك »

فقلت له : « ولكنى أتذكر ياصاحب السعادة أنى لقيته وحده مع ديروك »

— يحتمل أنه كان يدور فى خلده أنه لا يستطيع أحد معرفته ، ولقد بلغ منه الجبن أنه كان عندما يسافر يبالغ فى الحيطة ضد القتل ، ولقد سافرت معه فى نفس العربة وكانت غاصة بالفرش مبطنة بالورق ليكون ذلك كله وقاية له من القنابل

فقال بكتيه « ما تقررونه سعادتكم يزيد الأمر غرابة لأن نابليون وفق فى إقناع الجميع بشجاعته »

obeikandl.com

— استطاع ذلك لأنه لم يوجد إنسان أمهر منه فى التمثيل ، فهو غاش مخادع فى الصميم ، وأعظم مواهبه هى عبقريته فى الغش والتدليس ، ولقد عزا نجاحه فى الدنيا إلى دهائه قبل كل شىء ، وشخصيته كلها تنم على ذلك ، وكان عندما يمشى يحرك جسمه المتمعج ويهزه هزاً ، وكان له بنية الأفعى ومكرها » .

وبينا هو يقول ذلك هب واقفاً وحاول بجسمه المترهل ، وساقيه المتهدلتين المعقوفتين أن يقلد مشية نابليون .

فسأله المسيو دفرنوا : « إذا لم يكن نابليون شجاعاً فكيف اتفق أنه أحرز الشهرة بين جنوده ؟ »

— لقد حل المكر محل الشجاعة ، وكانت له قدرة فائقة على الاستفادة من الحوادث التافهة ، واستجاشة حماسة رجاله بها .

« وقد حدث لما عاد من المفاوضات التى انتهت بمعاهدة كامبوفرميدو أن أقامت الحكومة حفلة عرض عسكرية تكريماً له ، فلما دخل ساحة قصر لكسمبرج فى غرة الظهر تظاهر بالتفزع ، وزعم أنه رأى نجمة يتلألأ نورها فوق القصر حيث يجلس ، ووفق فى إقناع حاشيته إلى حد أن كثيراً من الحاضرين ومنهم المسيو هوتريف — وهو رجل أثق به ثقة كبرى — قالوا أيضاً إنهم أبصروها ، بل هناك ما هو أكثر من ذلك ! فى أثناء موقعة أسترلتز زعم نابليون أنه رأى نفس النجمة التى أبصرها تتلألأ من قبل فوق ساحة قصر لكسمبرج ، فتوهم كثير من الضباط أنهم رأوها وشعروا بأنهم واثقون من الفوز ! ونابليون كان يستطيع أن

يتقن الغش ، ويحسن الحيلة ، ولكنه لم يكن شجاعاً البتة » .

فقلت : « إذا لم يكن شجاعاً فكيف حدث أن مجرد شهرته أثرت فى الجيش النمساوى حتى خارت عزائم وحداته عند ما ذاع خبر انضمامه إلى جنده ؟ »

فلم يحاول تاليران تفسير ذلك ، وقال: «هذه حقيقة لا أستطيع إنكارها ، فى سنة ١٨٠٩ كان تحت قيادة ستاديون جيش من أحسن جيوش الدنيا ، وكان تام الأهبة ، منسق الفيالق ، متحفزاً للهجوم ، ولم يكن مع نابليون جيش ، فجاء إلى رجنز برج وهو يكاد يكون منفرداً ، فاستطارت شهرته جنان البافريين ، وفتت فى عضد النمساويين ، وكان من جراء ذلك أن انهزموا هزيمة منكرة » .

وهكذا ناقض تاليران نفسه بدون أن يعلم وبدون أن يلحظ هذه الحقيقة لأنه كيف يستطيع إنسان مجرد من الشجاعة أن يغامر بشهرته وسلامته ضد قوات أكثر منه عدداً ويناجزها القتال ويستلحم لها فى معركة ؟

وهنا ينتهى الحديث الذى رواه إينار فى مذكراته .

وقد ظل تاليران يردد بقية حياته التى امتدت إلى سنة ١٨٣٨ أن ما كان حكيما فى سياسة نابليون وخططه فهو من وحيه وتفكيره ، وثمرة إرشاداته ونصائحه ، وما كان خطأ وتهورا فهو من عند نابليون نفسه ، ولكن أكثر المؤرخين لم يتفقوا على تصويب هذا الرأى ، لأن تاليران نفسه لم يكن مثالاً يحتذى فى صدق الحديث ورواية الأخبار .